مشاهد الإجازة

عبد الملك القاسم

الرياض: ١١٤٤٢ ص.ب: ٦٣٧٣ ت: ٤٠٩٢٠٠٠ ف: ٤٠٣٣١٥٠
فروعنا - جدة ت: ٦٠٢٠٠٠٠ بريدة ت: ٣٢٦٢٨٨٨ الدمام ت: ٨٤٣١٠٠٠
www.dar-alqassem.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه سلم تسليماً.

إذا سافر الخيال، وأطياف الأماني معه تجول تتراءى في الأفق دوحة غناء، تجملها أنهار وأطيار، ترسم صوراً متتالية فوق قارة مترامية الأطراف تُسمى أفريقيا. ما ذكر اسمها إلا وتزاحمت صور الغابات الممتدة وأصوات الحيوانات المفترسة، وألوان الطيور الزاهية..

الكل يحدوه الشوق لسماع الحديث عنها، والسفر إلى أنحائها. ولأن الرحلة طويلة، والأجواء ممطرة؛ سنحط على غصن يُشرف على أعالي الجبال، ومصبات الأنهار.. لنرى ونسمع ما يجول تحت الأشجار.

لك أن تتأمل بني البشر، والغابات، والحيوانات الأليفة، والوحوش المفترسة.. إنه صراع اتخذ من البقاء هدفاً، ومن القوة تسلطاً، صراع عجيب ارتفع ضجيجه، وثار غباره، وعلم أثره، إلا أن المعني بالأمر لا يزال في سبات عميق، بل ويؤرقه التلميح بهذا الأمر دون التصريح، ولندعه يهنأ بنومه، ونصغي السمع لثلاثة مشاهد رأيتها بأم عيني تحكي واقع هذا الصراع.

المشهد الأول:

مئة وعشرون ألف لاجئ مسلم في كينيا اتخذوا من جذوع الأشجار، وأوراق الأغصان سكناً لهم في خمسة مخيمات متقاربة، يموت فيها أسبوعياً مئة طفل تقريباً من جراء نقص الغذاء وسوء الرعاية الصحية، ومن بقى منهم على قيد الحياة فهو عظم بارز، وجسم ناحل، وآهة خافتة لاتجرؤ على اقتحام أسوار المخيم، كثير من الأسر التي قدمت من الصومال إلى هذه المخيمات وصلت بعد أن فقدت معظم أفرادها.. فبينهم وبين هذه الأكواخ

مفازات، وقفار، ووحوش ولصوص، ومسيرة أسبوعين سيراً على الأقدام!

ولأن الفرصة مواتية، والريح تحرك الشـــراع في هذه المخيمات فقد شمر منصِّر وزوجته ـ وسط المئات من المنصرين أتوا من أقطار الدنيا ـ لافتراس ما بقي من الأحياء. وتسمى المنصر بعلي وزوجته بخديجة، و الأمر مرتب له بعناية، وبخطط طويلة الأمد أمضيا منها ســـنوات قبل القدوم في إجادة اللغـــة الصومالية.. ولأن الجوع يضرب أطنابه، والقحط ألقى بظلاله فقد نصب هؤلاء خيامهم وأدلوا بســـقائهم.. وهاهم أطفال المسلمين يهرعون خلفهم، وأمهات المسلمين يستعطفونهم.

المشهد الثاني:

مضى عام، وتبعه آخر، وطالت به الســـنون حتى تجاوزت الخمس، وهو يقبع بجوار بئر حفرها، ومدرســـة أسســـها. في يوم ارتفعت فيه أشـــعة الشمس، ورســـمت خيوطاً ذهبية على ما تبقى من شعيرات رأسه، تأمل فإذا بشـــيخ طاعن في السن قد احدودب ظهره، وهزل جسمه، وارتعشت أطرافه، يقبع في زاوية المبنى ويطيل النظر إليه، تأمل وفكر! لماذا ينظر؟ وفيم يفكر؟ وعندما اســـتوثقت منه عينا ذلك الشـــيخ سأله الرجل: لماذا تنظر؟وفيم تفكر؟

أجاب بصوت قطعه أنين الشـــكوى إلى الله من تهاون الأمة: أنت رجل فاضل، ومحســـن كريم، ولك ســـنوات تعين أهل الحاجات، وتسير في ركاب الخير، ولكن ينقصك شيء واحد؟

تعجب الرجل، وســـأل الشـــيخ على عجل: وما هو؟ اتكأ الشيخ على عصاه، وأمال رأســـه، ورفع ســـبابته وقال: أن تقول أشـــهد أن لا إله إلا الله، وأشـــهد أن محمد رســـول الله. صعق الرجل، وأســـقط في يده.. سنوات وهو يدعو إلى نصرانيته.. ويعطي، ويبذل من ماله، ووقته، ثم هذا حصاد ثمره.. ولأنه في الغابة، ويسكن قلبه شريعتها تحول غضبه إلى

فعل فطمر البئر، وأحرق المدرسة، ثم ولى مدبراً!

المشهد الثالث:

المرأة بيت القصيد في سلسلة مترابطة لهدم الأسرة المسلمة؛ ولأنها أسهل الوسائل وأقربها ـ حسب التجارب والوقائع ـ فقد أقامت جمعيات (إنسانية) في مخيمات اللاجئين أماكن لتجمع النساء، وإقامت الحفلات، والمسرحيات وسط مجاعة مهلكة، ومسغبة قاتلة.. وعندما رفض الحضور ولم تتقدم إليهم من تراقص أوربياً وتأخذ بيد رجل أجنبي هرعوا إلى مجال التوظيف. نعم فهناك نساء موظفات لديهم بأجر شهري لنظافة المخيمات.. قلبوا الأمر، واشترطوا عليهن لاستلام المرتبات الحضور إلى ذلك المكان مساء كل أحد. وعلى استحياء من المسلمات كانت البداية. ومضت خمس سنوات كان لهم فيها ما أرادوا ولا تزال أعداد الراقصات تزداد، وأصوات الطبول ترتفع، وأهازيج الفرح تزهو، وتحولت من كانت محجبة مصلية إلى دمية في أيديهم!

وفي هذا المجتمع الصغير ترى حال الأمة مشابهاً، بل هو صورة مصغرة منه تماماً، وإن أنكرت عليَّ هذا التصور؛ فأرسل طرفك في أماكن السياحة البحرية، وقل لي بربك من يصدق أن امرأة مسلمة خالط الإسلام شغاف قلبها تقف على شاطئ البحر عارية، أو شبه عارية! وأن سألت عن الاسم فهذه عائشة، وتلك فاطمة وأخرى خديجة! ولكن كيف حدث هذا في عشرين سنة فقط أو ثلاثين!

تحولت الرحلة إلى أفريقيا إلى بقايا أحزان، وأطلال سعادة.. وانتهت الإجازة بين مُشرق ومُغرب، وكل نفس بما كسبت رهينة.. وفي رصد للواقع واستقراء سريع يلازمك الحزن أينما حللت، وحيثما ارتحلت، وتبقى طائفة من أمتي على الحق منصورة!.

1001989
SR 0